القطبان الارضيـــيان والاسكيمو

للأديب محمد وحيد الدين المعرى

الانسان وفطرة الاكتشاف

خلق الانسان بفطرته وغريزته محباً للاطلاع والتنقيب ، وهذه الفطرة والغريزة تنشآن لديه منذ ولادته ، فإذا رأى الطفل شيئا تراه يسعى لمعرفة كنهه ومحتوياته ؛ فان كان مثلا ألعوبة آلية يسعى ليطلع على أسرارها ، وكثيراً ما يكسرها ليرى السبب الذى جعلها تقوم ببعض الحركات أو تحدث بعض الأصوات ... وهذه الغريزة ضرورية للإنسان إذ لولاها لعاش عمره ينظر إلى الطبيعة نظرة باقى الحيوانات لايفكر فى أمرها بل ولا فيما يختص بذاته ، ولو بقى على هذا الوضع لعاش حياته عيشة بهيمية يندفع للقيام ببعض الحركات أو الأعمال الضرورية كالطعام والشراب والنوم والخوف والدفاع عن النفس وغير ذلك بدافع خارجى لاعلاقة لتفكيره فيه كالجوع والعطش والنعاس والألم وغيره ، إذاً فالأنسان عاقل ، وعقله دفعه للتفكير، وتفكيره دعاه للاطلاع والتنقيب والاكتشاف والاختراع ، لذلك فكر بادىء ذى بدء فى نفسه ثم فيما جاوره من الأشياء وفيما رآه قريباً منه وكذلك فقد تأمل فى هذه الأرض التى يعيش عليها وباقى المخلوقات كالكواكب والنجوم وغيرها .

العرب وكروية الأرض:

فكر الانسان فى هذه الارض التى يعيش عليها ويتنقل فيها ثم طاف بها إلى مسافات بعيدة علّه يصل إلى آخرها ولكن عبثاً ماحاول ، فأينما سار وجد الطريق أمامه مفتوحة إن كان براً أو كان بحراً فاعتقد بلا نهائيتها وبأنها مسطحة لا أول لها ولا آخر، وبقيت أمامه هذه العقبة الكأداء زمناً طويلا طلسما مجهولا ولغزاً صعباً لا يستطيع حلهما : وجاء الإسلام بكتابه المجيد فنقض كثيراً من النظريات البالية التى استعصب حلها زمناً طويلا فقال: «وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب». ثم ازدهر مجد العرب وأسسوا مدنيتهم الزاهرة وقام فيهم العلماء المتعددون ، ودرسوا ما وضع السالفون من النظريات الفلسفية ووافقوا على ماسايرالعقل ونقضوا كثيراً من النظريات الأخرى التى تخالفه ، وساير دينهم العلم والعقل جنباً إلى جنب ، فأسسوا مدنية خاصة بهم تختلف عن باقى المدنيات وطبعوها بطابعهم الخاص واستطاعوا أن يثبتوا فى العصر العباسى فساد الكثير من النظريات كنظرية انبساط الأرض ولا نهائيتها ، وقالوا إن الأرض كرة مستديرة تسبح فى الهواء شأن باقى الكواكب والنجوم المنثورة فى الفضاء . وأمر الخليفة المأمون ببناء مرصد فلكى فوق جبل قاسيون فى دمشق ، وبقيت آثاره حتى دخول الحلفاء إلى سوريا عام ١٩٤١ ، إذ خربته القنابل أثناء ضرب المراكز العسكرية فوق هذا الجبل ، كما أمر بعض الرياضيين بحساب طول محيط الأرض ، وقاس هذا المسافة الواقعة بين عاصمة الملك ببغداد ومصيف الخلفاء — الرقة — واستنتج منها طول المحيط. وأنكر أقوام وعلماء آخرون صحة هذه النظرية ، فقال بعضهم ببطلانها وانبساط الأرض

ذلك تعاويذ خاصة يقرؤها الإنسان لطرد الخبائث والشياطين عنه[1]

وقد انتقلت مثل هذه الأفكار البدائية إلى اليهود أيضاً . فكان يوشع بن لاوى يشفى الأمراض بقراءة بعض الآيات من الزمور الحادى والتسعين ، ولكن كان من المحرم قراءة شىء من التوراة على المرضى[2] .

وذكر عن « هونا » « R. Huna » عن « يوسف » « R. Josef » أن الإنسان يصلى صلاة « الشماع » لطرد الأرواح الخبيثة ولأبعادها عن المصلى »[3] . وقد استخدمت المسيحية قراءة الكتاب المقدس لغرض إشفاء المرضى وكذلك الصلاة[4]

أما صلاتا الصبح والمساء والصلوات الأخرى فى الإسلام فإنها لم تتخذ لهذا الغرض بل جعلت واجباً دينياً على المسلم كسائر الواجبات .

جواد على

(١) Scheltelouiw.

(٢) Schelteloniw p, 23 Schelu ot 15 b Jelawedcau.

(٣) Jer. Berahot 1,1 Jeish Encyd.3 P,202 ff 10 P,204 ff.

(٤) Schefte'owiz P, 23 Schurer Husto cf the Jeuish. natation 3 P, 4 of.

التى تنتهى شمالا بجبال « قاف » ، تلك الجبال التى كثر حديثهم عنها ، ولعلهم يقصدون بها جبال « قافقاسيا » ، لأنها وقفت أمامهم كالحصن المنيع تحول دون أطماعهم فى الفتوحات الشمالية لارتفاعها أو لكثرة الهوام والحيوانات المتوحشة فيها

وفتح العرب الأندلس وأسسوا فيها مدنيتهم الزاهرة التى ضاهت مدنيتهم فى الشرق ، وأخذ عنهم الغرب العلوم والفنون ، فاستنارت أفكارهم بعدما كانت فى ظلمة دامسة ، وقام منهم الفلاسفة الكثيرون بعضهم يدعى كرويتها والآخر ينكره ، وقاسوا فى سبيل ذلك من العذاب ، لأن ذلك كان ينافى التعاليم الكنسية التى تؤمن بسطها ، وحبطت الفكرة زمناً طويلا ، وحكم على الكثيرين بالموت جزاء لمروقهم من الدين ، ولكن بعض الشباب آمنوا بما آمن به أساتذتهم العرب بكرويتها وقاموا بالدعاية الواسعة لها ، وكان على رأسهم كريستوف كولومبس الذى استطاع أن يقنع الملك فرديناند وزوجته الملكة إزابيلا بما مناهما من الفتوحات العظيمة التى ترفع شأن مملكتهما الفتية وبالسيطرة على طريق الهند التى يسيطر عليها أعداؤهما المسلمون فيما إذا لاقى مشروعه النجاح . فأقدم هذان الملكان على تجهيزه بما يلزمه من السفن وتزويده بالمؤن والرجال من المحكوم عليهم بالإعدام أو السجن المؤبد طمعاً فى إعلاء اسمهما فى الوقت الذى كان فيه الاعتقاد السائد بأن هذه الطريق البحرية الذاهبة إلى الغرب ستؤدى حتما إلى جهنم حيث تنام الشمس فى مهدها . وبعد جهد وعناء وصل كريستوف الهند المزعومة وسماها « جزائر الهند الشرقية » ، وعاد منها موقراً بالهدايا الغريبة والنفائس النادرة من حلى وذهب وديكة هندية وإنسان أحمر وغيرها مما لاشى العقائد الفاسدة البالية ، ثم وشى الوشاة عند الملكين بكريستوف ، فزج فى السجن حيث قضى نحبه . وذهب رحالة إلى هذه الهند يدعى أمريكو حيث قام بالتجول فى ربوعها وأثبت أن هذه البلاد ليست سوى عالم جديد لم يكن معروفاً من قبل فسميت باسمه أمريكا ، وقام ماجلان برحلته الاستكشافية الشهيرة[1] فطاف حول العالم ذاهباً من الغرب آيباً من الشرق ، عندها تلاشت نظرية انبساط الأرض وذهبت إلى الأبد

قامت الدول تتسابق فى الاكتشاف والاستيلاء على البلاد والجزر المجهولة ، حتى كادوا يأتون عليها كلها ، فعمدوا إلى اكتشاف القطبين الأرضيين الشمالى والجنوبى ، ولاقوا فى سبيلهما الأهوال لشدة الصقيع وهبوط درجة الحرارة إلى ما لا يحتمله الجسم البشرى حتى وفقوا إلى ذلك فى أواخر العصر المنصرم .

اكتشاف القطبين الشمالى والجنوبى

لما كان القطب الشمالى قريباً من البلاد المتمدنة كان غاية المستكشفين وهدف الدول الكبرى التى أحبت أن تستأثر بالفخر دون غيرها ، فهبت تتسابق إليه ولاقت فى سبيله من المشاق والمتاعب ما لا يوصف . ابتدأت الرحلات منذ نهاية القرن السادس عشر ، وبعد جهد وعناء كبيرين وعلى يد الأميرال الانكليزى « روبرجان له ميزوريه Robert Oean le Mésurier » (المعروف بـ — ماك كلور Mac—Clore المولود سنة ١٨٠٧ — ١٨٧٣) تم اكتشاف الطريق الأول الشمالى الغربى (بين خليج هدسن Baie d' Hudson ومضيق بيرنغ Litroit de Béring) بين سنة ١٨٥٠ و ١٨٥٤ م . وعلى يد الرائد الرحالة الطبيعى السويدى نلس آدولف إريك Nil Adof Eric (المعروف بـ — نوردانشولد Nordnshjœld المولود فى هيلسينفورس ١٨٣٢ — ١٩٠١) تم اكتشاف الطريق الثانى الشمالى الشرقى بين سنة ١٨٧٨ و١٨٧٩ م . وفى هذا القرن بدأ العلماء بتشكيل بعثات علمية غايتها اكتشاف القطبين توسيعاً لعلم تقويم البلدان (الجغرافيا) فأرسلت انكلترا بعثات اكتشفت بعض الجزر القطبية شمال كندا ، ثم كثرت الهيئات التى تقصد القطبين إلى أن خرج الدكتور « فريد جوف نانسن Fridt jof Nansen » الرحالة الطبيعى (المولود فى ستورفرون Store-Froen ١٨٦١ — ١٩٣٠) مع اثنى عشر رجلا فى سفينة سماها (فرام Fram) صنعت خصيصاً لهذه الغاية ، فسار أولا فى الطريق الشمالى الشرقى واشترى من سواحل سيبيريا عدداً من كلاب الجليد وسار نحو

(١) اقرأ فصلا فى مجلة المختار — عدد ١٣ تحت عنوان « فاتح البحار »

الشمال حتى بلغ ٤ َ ر٨٤ ° حيث اضطر إلى قضاء فصل الشتاء ؛ ثم ترك سفينته وواصل السير مع أحد رفاقه مشياً على الأقدام تصحبهما الزحافات والكلاب وبعض الآلات الفنية حتى بلغا عرض ١٣ َ و٨٦ ° ثم رجعا حتى وصلا أرض «فرانسوا جوزيف» حيث قضيا فصل الشتاء ؛ وهناك التقيا بسائح انكليزى اسمه « جاكسون » فتعرفا إليه وركبا معه فى سفينته حتى وصلا بلاد النرويج ، أما سفينة فرام فقد عادت بعد أن تخلصت من الجليد الذى كان محيطاً بها . وفى سنة ١٨٩٩ سافر الدوق « ده زابرزو Duc des Abruzzes » الإيطالى فنخل أرض فرنسوا جوزيف وسار فيها بالزحافات حتى وصل عرض ٣٣ َ ر٨٦ ° متقدما نانسى بعشرين دقيقة أى ما يعادل ٣٧،٠٣٧ كيلومترا . وفى سنة ١٩٠٥ سافر الضابط الأميركى « بيارى Beary » (المولود فى كريسون سبرينغ Creson Springh سنة ١٨٥٦ — ١٩٢٠) نحو القطب ماراً ببحر بافن إلى أن وصل إلى شمالى غروتلنده فنظم هناك بعثة مؤلفة من أمريكيين وأقزام سار بهم ومعهم الكلاب والزحافات مدة شهر كامل ، ثم تقدمهم بخمسة من أشجع رجاله حتى وصل القطب فى مايو ١٩٠٩ ورفع عليه العلم الأمريكى . وفحص تلك الجهات فوجدها بحراً تكسوه الثلوج عمقه ٣٠٠٠ متر . وأهم الأراضى التى اكتشفت فى هذا القطب هى جزر فرنسوا جوزيف ، وزامبل الجديدة ، وسبيتزبوغ فى شمالى أوربا ، وجزر سيبريا الجديدة ورانجل فى شمالى آسيا ، وأراضى غروئنلنده وبافن غرانت والبرنس دوكال والملك غليوم وفيكتوريا وآلبيروبانكس وملفيل وبارى فى شمال أمريكا .

أما القطب الجنوبى فكان الكابتن « كوك Cook » الانكليزى أول من اجتاز مدار القطب الجنوبى أثناء بحثه عن قارة جنوبية فوصل سنة ١٧٧٤ إلى عرض ١٠ َ ر٧١ ° حيث منعه الجليد عن التقدم . ثم أرسلت روسيا بعثة برئاسة « بلنغهاوزن Bellingshausen » فى أوائل القرن التاسع عشر فاجتازت مدار القطب الجنوبى واكتشفت أرض الاسكندر الأول (باسم القيصر) وفى سنة ١٨٣٨ اكتشف « دومون دورفيل Dumont d' urville » الفرنسى أرض لويس فيليب (باسم ملك فرنسا) وبعد سنتين اكتشف أرض آديلى . وفى سنة ١٨٤٠ اكتشف (جمس روس James Rose) الانكليزى أرض فيكتوريا ذات البراكين المتمددة ووصل بعد سنتين إلى عرض ١٠ َ ر٧٨ ° . وفى سنة ١٩٠٠ سافر من انكلترا « سكوت Scoutt وشاكلتون Chakleton » واكتشفا أرض إدوار السابع وواصلا السير بالزحافات إلى عرض ١٧ َ ر٨٢ ° حيث مكثا يستكشفان ثلاث سنوات . وفى سنة ١٩١٠ سافر « آموندسن Amunden » (المولود فى بورج — فى النرويج Börje سنة ١٨٧٢ — ١٩٢٨) فى سفينة اسمها «نانسن» نحو الجنوب مخترقا بحر روس ؛ وقد اضطر إلى أن يقيم فى كوخ خشبى فوق أرض جليدية مدة الشتاء ؛ ثم أخذ أربع زحافات وكلابا ومؤونا تكفيه أربعة أشهر واتجه نحو القطب إلى أن وصله فى ديسمبر سنة ١٩١١ . وفحص تلك الجهات فوجدها أراضى جبلية بركانية ارتفاعها ٣٠٠٠ متر وهى أشد برداً من المنطقة الشمالية تهب عليها الرياح الغربية القارسة وينزل فيها الثلج أكثر أيام السنة حتى لوحظ أنه نزل فيها أكثر من ٢٥٠ يوماً فى السنة . وأهم الأراضى التى اكتشفت فى هذا القطب هى أراضى الاسكندر الأول وغراهام ولويس فيليب وجزر جوانفيل وآنفرس وشتلاند الجنوبية وأوركارد الجنوبية — جنوب أمريكا ، وأراضى آندربى جنوب أفريقيا ، وأراضى آديلى وفيكتوريا وإدوار السابع جنوب أستراليا

الأقزام الإسكيمو Esquimaunx : يطلق هذا الاسم على الأقوام التى تقطن منطقتى القطبين الشمالى والجنوبى . ومعنى كلمة « اسكيمو » فى اللغات الغربية « آكل اللحم النيء » ويسمون أنفسهم بالرجال ونسميهم بالأقزام لقصر أجسامهم التى لا تتجاوز الستين سنتيمترا ، وهم بُدْن ذوو عضلات قوية وسواعد مفتولة وأرجل غليظة معوجة ، لونهم أسمر ورؤوسهم كبيرة مستديرة مغطاة بشعر أسود غليظ وأنوفهم عريضة وعيونهم سوداء صغيرة وأفواههم واسعة وشفاههم غليظة فى داخلها أسنان بيضاء لامعة وجلودهم ناعمة الملمس ، ولباس الرجل شبيه بلباس المرأة ؛ لذا كان التميز بينهما صعباً . والفرق بينهما أن النساء يمشطن شعورهن . ثم يعقدهن تيجانا والرجال يدعونها على طبيعتها ولكنهم يقصون الغرة كيلا تحجب العيون .

بيوت الإسكيمو : فى بعض البلاد مثل شمالى سيبريا وجنوب غربى غروئنلندة تبنى قبائل الاسكيمو بيوتا من الحجر والطين ، أما فى

الأصقاع القطبية فلتعذر وجود هاتين المادتين فإنهم يسكنون بيوتا من الثلج تتسع لثلاثة أو أربعة أشخاص تقام جدرانها على جانب حفرة من الأرض ذات باب صغير يضطر الداخل إليها أن يحبو على أربعة ، وهي معتمة تتصبب بللا من حرارة ذبالات المصابيح التي يشع منها قبس ضئيل من النور توقد بزيت الحيتان وشحوم الدببة ، ولذا كانت كريهة الرائحة لا يستطيع الإنسان البقاء فيها لقذارتها ولكثرة الأكوام اللحمية المتجمدة المكدسة فيها ؛ ولكونهم يبولون فيها ويضعون الجلود وما يصطادونه بها . وبفضل التضافر والتداون بين عائلات هؤلاء الأقوام فإن أكبر قصر يمكن أن يشاد بسويعات قليلة ، فترى قوما ينشرون الجليد وآخرون يجمعون شتات النشارة وقطع الثلوج الصغيرة ، والبناء يتناول الحجارة ويضعها في المكان المخصص لها ويثبتها بهذه النشارة بدلا من الطين ولا تلبث بعد أن تتعرض للصقيع قليلا أن تصبح قطعة واحدة . وهذه البيوت عند ما تكون جديدة تبقى جميلة ومغرية بلونها الرخامي الفاخر ثم لا تلبث بعد قليل من سكناها حتى تصبح أنتن من أختها .

والأقزام لا يعرفون الزراعة ولا الصناعة اللهم إلا فيما ينحصر فيما يصطادونه من الحيوانات البرية والبحرية ، يأكلون لحما طريا من الحيتان المتنوعة وعجول البحر والفوك والمورس وأنواع مختلفة من الأسماك ، فتراهم جثاة على ركبهم وجذوعهم مائلة إلى الأمام لا يبدون حراكا إلا من أيديهم النهمة وأمامهم طست هائل ملؤه قطع كبيرة من اللحم يقبض كل منهم بيديه وأسنانه القاطعة قطعاً كبيرة من اللحم يمالجها حتى يقطعها ولا يكاد يلتهمها حتى تسرع يداه إلى قطعة غيرها . ومما يؤثر عن طعامهم هذا أنه لا يعتبر صالحاً للأكل إلا بعد أن يكدس بعضه على بعض مدة طويلة من الزمن ريثما يتفسخ وتظهر رائحته المنتنة الشهية وفي هذه الحال ينشر الحرارة الكافية في الجسم أكثر مما لو كان طريا .

والصيد هو عملهم الأول الذي يتوقف عليه مدار معيشتهم واكتساؤهم بالألبسة الفرائية المتنوعة ؛ ولهم فيه فنون وحيل لا يضارعهم فيها إنسان آخر . وكيفيته أن يأتي الصياد (وكثيراً ما يكون طفلا صغيراً لم يتجاوز الخامسة أو السادسة من العمر) ويحفر بحربته الطويلة المسننة المربوطة من أسفلها بحبل طويل الجليد السائر تحت سطح البحر ولا يجهد نفسه كثيراً حتى يبلغ الماء فيبدأ بتوسيع الحفرة ويقف بجانبها وقفة الهر على أبواب جحر الفأر حتى إذا ما تم صوت سباحة الطريدة انتصب قائماً ورفع يده إلى الأعلى وسدد السهم نحوها حتى إذا ما مرت قذفها قذفة قوية تخترق أضلاعها ، وهناك تقع الواقعة الكبرى فالحيوان يجذب الصياد تارة والصياد يجذبه أخرى ، وكثيراً ما يتغلب الحيوان عليه فيجذبه نحو الحفرة ، وعندها يأخذ في الصياح الذي يدوي في الآفاق فيترا كض القوم رجالا ونساء لنجدته ، ولا يكادون يخرجون الفريسة خارج الحفرة حتى يستل كل منهم مديته ويغرسها في جلد الفريسة وهي حية دلالة على مشاركته إياهم في صيدها . وهذه العملية تخوله حق المشاركة في لحمها فيقطع قطعة كبيرة منها ويقذفها في فيه وبعد مضغ طويل يبتلعها ثم يربطونها بحبالهم ويسحبونها حتى يصلوا إلى بيوتهم فيقتسموها . وإذا جاء الشتاء وجمد الماء صادفوا عجول البحر وقد أحدثت في الجليد ثغراً وطلعت تستنشق الهواء فيصوبون إليها حرابهم ويرمونها وقد يترقبون ظهورها من هذه الثغرات حتى إذا ما خرجت اقتنصوها . وكذلك يصطادون الطيور المائية المختلفة ويقتلون ذوات الفراء من الثعالب والدببة القطبية البيضاء إلا أن هذه تقطع قلوبهم من الرعب لشراستها .

* * *

التجارة عند الأقزام محدودة تقتصر على بيع جلود الحيوانات والفراء والعظام وعاج المورس ؛ ويبيعون هذه المحاصيل إلى البلاد المجاورة كسواحل أمريكا الشمالية وروسيا وسيبريا وهي تدر عليهم أرباحا طائلة يشترون بها ما يلزمهم من المواد الأولية كالحبوب والمقددات والسكر والشاي والقهوة والكاكاو وغير ذلك من المواد التي لا تتأثر بطول العهد ، والألبسة الصوفية والقطنية الجاهزة وبعض الآلات الحديثة كالحاكي والألاعيب الصبيانية وغيرها . ويندر تعاطيهم التجارة فيما بينهم لعدم وجود ضرورة للمبادلة . وينقلون هذه المتاجر من وإلى البلاد المتعددة بواسطة الزاحفات في الأصقاع المتجمدة والزوارق في البحار المائعة. ويعودون أولادهم منذ نعومة أظفارهم على الأسفار والأعمال الشاقة فهم يصنعون القوارب الصغيرة من جلد المورس وعظام الحيوانات

فى أيام الصيف ويسابقون بها الريح فى جريها حتى إذا ما وصلوا البر سحبوها معهم وتركوا عندها نفراً منهم يحرسها ، وكذلك الزحافات التى تجرها الكلاب فوق الأراضى المتجمدة .

***

انقطاع الأقزام فى بلادهم النائية عن العالم المتمدن ، وانزواؤهم فى الأصقاع الجامدة وتعذر الانتقال بين بعضها وبعض إلى مسافات بعيدة بالسرعة التى تقتضيها الحياة العصرية ، وعدم سلوكهم فى الارتزاق مسلك الأمم الباقية بتبادل المحصولات الزراعية والحيوانية والمعدنية وغيرها مما قد يوجد فى قسم من البلاد ويندر فى غيرها لعدم حاجتهم إلى ذلك ولتساوى أراضيهم فى منتجاتها التى تنحصر فى صيد الحيوانات البحرية والبرية والاكتساء بجلودها والتقوت بلحومها ، جعلهم يقنعون بما رزقهم الله ولا يطمعون فى الحصول على ما فى أيدى الغير من بلاد ومتاجر أو سلع وغيرها ، وجعل منهم الأمة العاملة المجدة التى تسعى للحصول على قوتها الضرورى بهمة لا تعرف الكلل دون الاعتماد على سواعد الآخرين . لذلك لا يعرفون رابطة قومية أو دينية ولا تجمعهم عصبية أو جنسية ، هذا التفكك القوى تراه ظاهراً حتى بين أفراد الأسرة الواحدة فإذا بلغ أحد أفرادها سن الكبر أو أصيب بمرض أو عاهة تمنعه من القيام ببعض الأعمال الضرورية بحيث يصبح عالة على غيره حتى للأولاد والأفراد الآخرين أن يأخذوا هذا المسكين إلى مكان بعيد مرتفع ثم يجردونه من لباسه ويتركونه عرضة للرياح القارسة إلى أن يموت . وليس هناك قيود عائلية أو زوجية قوية كما بين باقى الأمم ، بل هى شكلية من حيث المأوى والاشتراك فى الأعمال المنزلية وتربية الصغار وأعمال الصيد وغيرها . والغريزة الجنسية يمكن أن تقضى بين أى فرد من أفراد العائلة أو غيرها ، بين الجار وجارته وبين الأخ وزوجة أخيه والأخ وأخته حتى بين الأب وابنته والولد وأمه . ويمكن أن يجرى هذا العمل بحضور الزوج الأصيل وعلى مرأى منه دون أن يبدى أى اهتمام (بشرط أن يأذن بذلك) إلا أن هذه الأعمال البهيمية آخذة فى الزوال بعد اختلاطهم بالأقوام المتمدنة وخاصة بعد ما توافدت عليهم البعثات الدينية التبشيرية وبعد أن صاروا يسافرون لبيع متاجرهم إلى غروتنلنده وشمال أميركا وآسيا وهم آخذون فى الرقى والتمدن تدريجا .

أما لغتهم فإنها ضيقة محدودة بحدود المناطق التى يتجولون فيها فهى قليلة الكلمات كثيرة المعانى، تفيد الكلمة الواحدة منها معنى عشر كلمات أو أكثر من اللغات الأخرى . لذا وضعت فى جملة اللغات الجامدة التى يحق أن تكون مثلها الأعلى فى الجمود ، وهم أميون ولا كتابة للغتهم

طبائعهم وعاداتهم : إن القزم بعضلاته القوية وساعديه المفتولين وساقيه الأعوجين يستطيع بكل سهولة أن يصعد أشهق الجبال دون أى جهد أو كثير عناء ، فيقذف بحبله على صخرة عالية حتى إذا ما علق بها جربه مراراً ، فشده بقوة وتعلق به ، فإذا تأكد من ثباته لف طرفه على ساقه وصعد عليه بسرعة ، فلا تكاد تراه فى أسفل الوادى حتى تراه يتراكض فوق قمة الجبل ، ثم ينزل ويضرب حبله حتى يسقط فيأخذه وينصرف . وهم ذوو شجاعة وصبر ورأى سديد ونفوس أبية وقلوب رحيمة شفيقة يكرمون الضيف ويؤثرونه على أنفسهم . وهم فطريون يميلون إلى النكتة واللهو والضحك والفكاهة ، فيخزون بعضهم ويترثرون ويسحبون الزحافات إلى الخلف أثناء سيرها ويقهقهون ، أما الكذب والمكر والخداع والبغض والضغينة ، فلا أثر لها لديهم ألبتة ؛ وهم يحبون استماع الحاكى التى يعيدونها كلما انتهت مراراً ، ويجلسون فى بيوتهم الجليدية المعتمة إلى جانب بعضهم وبين أيديهم الجلود والعظام والشحوم ، فهنا امرأة تلين نعل زوجها المتقلص من شدة البرد بدهنه بالشحم والشمع وبشده بأسنانها وتساعده بلبسه وشده على ساقه ، وهنا أخرى تعهدت المصباح تنظفه وتمده بالشحوم ، وثالثة تنظف ولدها وتمشطه بمشط مؤلف من عظم الفوك وشعر الدب ثم تبيد القمل الناتج عنه بأسنانها ثم تلحس جسمه وتدهنه بالشحوم ، وأخرى تنظف وتلين الفراء وتصنع الحراب العظمية للصيد والدفاع عن النفس ضد الحيوانات المفترسة . وهناك زوجة تمد زوجها بالطعام كلما نفد من فيه وهو مستلق على ظهره . ومما يؤثر عنهم أنهم يحيون بعضهم بحك أنوفهم ببعضها ويقال إن هذه العادة المضحكة أصبحت لا تشاهد إلا عند الأقوام النائية .

(حلب) **محمد وحيد الدين المعرى**